)حنا مينا كاتب الكفاح والفرح

بقلم الباحثة الدكتورة: علا آغا
باحثة في مجال اللغة العربية وآدابها
ola.aga@hotmail.com

أخذت القصة العربية تطرح عنها قيود التقليد رويداً رويداً مع بداية القرن العشرين ،وتسير نحو الإبداع، لتلبس روحاً جديدة ، حيث كانت تقوم بانتقاء عناصرها بحبكة خاصة ، إذ كان كل عنصر يرمز ضمنياً إلى سائر العناصر، وبذلك تكون مجموع العناصر متوافقة مع موضوع القصة، والهدف المراد إيصاله للمتلقي ، وبالتالي تكون قريبة من السرد التاريخي ،إلى جانب أدبيتها ،ومن خلال ذلك يتمكن الكاتب من توسيع الإطار العام للقصة عبر ضخّ كمّ كبيرمن الأحداث الجانبية، ليضع في متناول القارئ معطيات متكاملة , وعلى قدر عالٍ من الحبكة. وما بالنا ونحن نتحدث عن أحد عمالقة الرواية العربية كتابة ، وحبكة ، وتميزاً، إنه "حنا مينه " صاحب المسيرة الطويلة المرافقة للتعب ،والشقاء ،والتي كانت مشياً، وبأقدام حافية، في حقول من المسامير، في زمن حاكى الكثير من الإحتلالات ، والنكبات ،زمن طال الفقر كافة شرائحه . ولد حنا مينا في مدينة اللاذقية ، في ٩ آذار ،عام ١٩٢٤ م ، و بدأ حياته مناضلاً في وجه الاستعمار الفرنسي ، وهو في عمرالإثني عشر عاماً ، عاش حياة قاسية، وتحدث عن هذه الفترة من حياته قائلاً: " إنني ولدت بالخطأ، ونشأت بالخطأ، وكتبت بالخطأ، فالطفل العليل، الذي تنوس حياته كذبالة الشمعة الواهنة، لم تطفئ ريح المتون ذبالة شمعته، وبعد الابحار على المراكب، غدا الرغيف خيَّالاً، وعلي، سداً لجوع العائلة، أن أركض وراءه، ولا أزال. فقد اضطررت للعمل حمالاً في المرفأ، ثم حلاقاً ، ومن الحلاقة إلى الصحافة، ومن الصحافة إلى كتابة المسلسلات الاذاعي، .....و إلى المنافي، لأسباب قاهرة، حيث التشرد في أوروبا، والنوم تحت الجسور"[١], إلى أن عاد إلى أرض المنشأ التي أحبها وتغنى فيها. عاش مينه طفولته في إحدى قرى لواء إسكندرون على الساحل السوري، وانتقل مع عائلته عام ١٩٣٩ إلى مدينة اللاذقية الساحلية، " دخل المدرسة في سن السابعة ، وحصل على شهادة التعليم الابتدائي، لكنّه لم يكمل تعليمه لسوء الأحوال المعيشية، والفقر المدقع الذي كان يعيش فيه"[٢] . عشق البحر، وكان ملهمه الأول , والقاسم المشترك في معظم أعماله التي تدور حول البحر وأهله.

ومما قاله مينه حول تعلقه بالبحر "إن البحر كان دائماً مصدر إلهامي، حتى إن معظم أعمالي مبللة بمياه موجه الصاخب... الأدباء العرب أكثرهم لم يكتبوا عن البحر لأنهم خافوا معاينة الموت في جبهة الموج الصاخب"[٣].

---

[١]:مقابله خاصة مع حنا مينا , خاص القصة السورية ,٢٨- ٨- ٢٠٠٣ .

[٢]."Hanna Mina: Syria's Old Man of the Sea". Al Akhbar. 24 March 2012. Retrieved 17 April 2018.

[٣٣]: جريدة الجزيرة : ١٢-٨-٢٠١٨.

"كان أديب الحقيقة والصدق، عصامي ، ساهم في إغناء الرواية العربية وعمل باجتهاد حتى أجاد وأبدع. كتب الكثير من الروايات والقصص يتحدث في معظمها عن البحر "[٤]و التي حملت الكثير من الصدق ، والعمق، والمعاناة ، والكفاح ، والواقعية ،والحب ، والجمال. ساهم في تأسيس رابطة الكتّاب السوريين واتحاد الكتاب العرب.

أما بداياته الأدبية كانت متواضعة، إذ تدرج في كتابة العرائض ، والمقالات ،والأخبار الصغيرة للصحف في سوريا ولبنان ، ثم تطور إلى كتابة المقالات الكبيرة ، والقصص القصيرة.

ثم استقر به الحال بالعاصمة دمشق ، وعمل في جريدة الانشاء الدمشقية ، حتى أصبح رئيس تحريرها .

يقول عن نفسه:

"(أنا كاتب الكفاح والفرح الإنسانيين) " [٥]فالكفاح له فرحه، له سعادته، له لذّته القصوى، عندما تعرف أنك تمنح حياتك فداء لحيوات الآخرين، هؤلاء الذين قد لا تعرف لبعضهم وجهاً، لكنك تؤمن في أعماقك، أن إنقاذهم من براثن الخوف والمرض والجوع والذل، جدير بأن يضحى في سبيله، ليس بالهناءة وحدها، بل بالمفاداة حتى الموت معها أيضاً. " إن وعي الوجود عندي، ترافق مع تحويل التجربة إلى وعي، وكانت التجربة الأولى في حي (المستنقع) الذي نشأت فيه في اسكندرونة، مثل التجربة الأخيرة، حين أرحل عن هذه الدنيا، ومثل تجربة الكفاح ما بينهما، منذورة كلها لمنح الرؤية للناس، لمساعدتهم على الخلاص من حمأة الجهل، والسير بهم ومعهم نحو المعرفة، هذه التي هي الخطوة الأولى في (المسيرة الكبرى) نحو الغد الأفضل"[٦].

أضواء على سيرته الذاتية بقلمه:

"لم أكن أتصور بأنني سأصبح كاتبا، لم أكن أتصور حتي في الأربعين من عمري أنني سأصبح كاتباً معروفاً، بدأت رحلة التشرد وأنا في الثالثة ، وهذه الرحلة من حيث هي ترحال مأساوي في المكان، عمرها الآن ثمانون عاماً، أما رحلتي في الزمان فهي أبعد من ذلك , وستبقي ما بقيت .

كان أبي رحمه الله رحالة من طراز خاص، لم ينفع ولم ينتفع برحلاته كلها، أراد الرحيل تلبية للمجهول، تاركاً العائلة أغلب الأحيان، للخوف ،والظلمة ، والجوع، ولطالما تساءلت وراء أي هدف كان يسعي؟ لا جواب طبعاً، انه بوهيمي بالفطرة .

كنت عليلاً، أمي وأخواتي الثلاث عملن خادمات، عملت أنا الصبي الوحيد، الناحل، أجيراً "[٧].

بدأت كتاباته الأدبية بكتابة مسرحية دونكيشوتية ، كتب الروايات والقصص والتي زادت على ٣٠ رواية أدبية طويلة غير القصص القصيرة ، منها عدة روايات خصصها للبحر التي عشقة وأحبه، له أكثر من ٤٠ رواية وقصة أهمها "المصابيح الزرق" التي نقلها إلى التلفزيون كتبها عام ١٩٤٥, ورواية "الشراع والعاصفة" التي نُقل نصها إلى السينما ،وتوالت إبداعاته وكتاباته بعد ذلك

كرواية "المستنقع" التي كانت تتحدث عن بقايا ذكريات مينا في الإسكندرون، وقد وصفها الناقد الأدبي صلاح فاضل بأنّها الأعظم من بين السير الذاتية على الإطلاق , والأوفر صدقًا , والأغنى فكرًا"[٨] .

---

[٤]جريدة الجزيرة : ١٢-٨-٢٠١٨.

[٥]: عزت فرح , جريدة كل العرب ،٥-٧- ٢٠١٤.

[٦]مقابلة خاصة مع الكاتب , ٢١-١٠—٢٠٠٩.

[٧]: خاص القصة السورية , أضيفت في ٢٤-٤-٢٠٠٥.

[٨]:"Hanna Mina". Syria Times. 7 July 2013. Retrieved 18 April 2018

وكانت رواية "الياطر" و"حمامة زرقاء في السحب" و"حدث في بيتاخو" والتي تجاوزت أعماله الأربعين روايةً وقصة. وكتب القصص القصيرة ونشرها في صحف دمشقية كان يراسلها، ويذكر ان الكثير من روايات حنا مينه تحولت إلى أفلام سينمائية سورية ومسلسلات تلفزيونية.

عاش الكثير من الخيبات , والألم , والهزائم . فقد تميزت حياته بالمزج ما بين الكفاح والنضال ,بعد أن أرهقه حلما كبيرا طالما لاحقه في إصلاح ما أفسدته البشرية على سطح الأرض، وبعد إنتاج أعمال أدبية كثيرة تحاكي الواقع وتفسره، وتدعو إلى الرحمة ، والبساطة ، والإحسان... لكنه وجد أنه لا فائدة... فالحياة تسير من سيئ إلى الأسوأ، والصراعات والحروب تأكل الأعمار والآمال .

وهو القائل: «أنا كاتب الكفاح والفرح الإنسانيين»، وقال الكثيرعن البحر الذي رافقه في الكثير من رحلاته الروائية : «إن البحر كان دائماً مصدر إلهامي، حتى أن معظم أعمالي مبللة بمياه موجه الصاخب»[٩].

من أهم كتاباته ورواياته :

١-المصابيح الزرق:

المصابيح الزرق" رواية تصور حياة مجموعة من البسطاء أيام الحرب العالمية . ولا سيما في سوريا، فهي تصور الجو المحموم الذي كانت تعيشه بلادنا أيام الحرب. فرواية "المصابيح الزرق" هي أزمة الحرب.

وقد تجاوز الروائي هذه الفكرة "أثر الحرب في الناس" إلى تصوير حياة كاملة تلعب فيها أزمة الحرب دوراً كبيراً، ولكن الدور الأكبر كان في الحديث عن حياتهم , وكفاحهم في سبيل العيش، وقضايا أمتهم ,. إنها قصة حياة مجموعة من الناس أخذت أحداثها في فترة تاريخية معينة ,

"اما الصراع مع التاريخ فقد تضمنه رواية المصابيح الزرق يقول المؤلف: واذا كان الاستعمار هو قدر الشعوب العربية، فهو في الواقع سرطان يفتك بالروح والبدن معا، ويترك الاوطان في دياجير الجهالة والعماء، بل يعيدها الى عصور ما قبل التاريخ والنضال ضد الاستعمار وتحدّي وسائله القمعيّة وفلسفته العنصرية، وروحه التدميرية واجب الانسانيّة وله الاسبقية والاولوية على صراع المجتمع والطبيعة."[١٠]

٢- الشراع والعاصفة

هي قصة مدينة سورية ساحلية أثناء الحرب العالمية الثانية. لقد صورها كاتبنا مع أثر الحرب عليها وما تركته من عواصف الإحتلالات المتعاقبة على أرض خصبة ، وأبرز التناقضات التي كانت كانت تعصف بمجتمع فقير , هي رواية تحدثت عن انتصار الإرادة البشرية والمغامرة.

فهي تتحدث عن رجال البحر المردة، في صراعهم اليومي المرير مع الموت المتمثل في البحر الهائج، والعواصف الغادرة، يقابلونها بأشرعتهم الممزقة، وقواربهم العتيقة، وعزمهم المستمد من صخور الشطآن.

إن فيها لروحاً أسطورياً حنوناً، ولكنه غائص الجذور بالأرض "البحر ملك" تلك هي صيحة الاحترام العميقة التي يطلقها كل بحار، والطروسي، بطل القصة الأول يؤمن بسلطنة البحر كما يؤمن بسلطنة المرأة، ولكنه، في عنفوان شعوره برجولته، يعرف كيف يكون ترويض النمور.

---

[٩] : هاشم صالح , الملحق الثقافي ,حنا مينا وتطويع الأيدلوجيا , ٢٩ أغسطس ٢٠١٨.

[١٠]: عزت فرح , منبر العرب ,٧-٥ -٢٠١٧

٣- الياطر :

تتحدث عن حياة صياد أقدم على جريمة قتل فيضطر للهرب. ليعيش في مكان ما على الحدود السورية التركية ,وتتداخل فيه أصوات عديدة ، ومرجعيات متنوّعة لتصنع عالمه الخاص.هي قصة تراوح بين الأحداث في الغابة، وذكريات المدينة، ضمن زمنين: زمن فيزيائي "الحياة على الشاطئ في الغابة"، وزمن نفسيّ لحظة ارتكابه لجريمة القتل , حيث يعيش غريبا وحيدا هاربا في خيمة نصبها على شاطئ البحر .إلى أن يصادف راعية من بلاد الاتراك , فيطمح بأن تكون هذه الفتاة هي صلة الوصل بالعالم الخارجي . وتتوالى الأحداث حاملة في طياتها الكثير من الأحداث والغربة والحب والبحث عن الأمان .

٤- الأبنوسة البيضاء:

كتاب الأبنوسة البيضاء هو مجموعة قصصية يتجه من خلالها نحو الواقعية

.. عشر من القصص التي كتبها بعد ١٩٦٩م ,يتحدث فيها عن المعاني الإنسانية والقيم والمبادئ التي يعبر بها كل إنسان لحياة أفضل ,

.. في ظل حكايات عابرة أخدنا مينه من بحور معاني لمعانٍ أقوي ,

لقد كان البحر .. مصدر إلهامه الوحيد في هذه المجموعة وقد اعتمد على المصداقية عن طريق بث أفكاره وقيمه إلى المتلقي العربي .

٥- نهاية رجل شجاع :

تحكي الرواية عن حياة مفيد الملقب بالوحش , من فترة الطفولة و الشقاوة إلى مرحلة البلوغ والنضوج ، الذي تربى على يد والده الفلاح , القاسي ، إذ كان يستخدم أعنف الوسائل من إيذاء وضرب, أمام رجال الضيعة ونسائها و صغارها مما سبب له أذى نفسي , و أصيب بعدوانية شديدة , قام على أثرها بالهرب من البيت و الضيعة ولم يعد إليها قط .

"مفيد الوحش كما صوّره لنا حنا مينة ما هو إلّا إنسان بسيط على الفطرة، فيه بذور الخير والشر وكلتاهما يبحثان عمّن ينمّيهما في نفسه. مفيد شجاع وعنيد في نفس الوقت، إذا أصرّ على رأي لا يستطيع أحد أن يغيّره، وإن أراد فعل شيء فلا شيء يثنيه عن فعله ولا يسمح لأحد أن يكون حائلًا بينه وبين تحقيق هدفه. تكمن مشكلة مفيد أنّه آمن أنّه بالعمل الفردي يستطيع التغلّب على كل شيء، لكن الرواية ترمي إلى بيان عاقبة العمل الفردي الذي يودي بصاحبه إلى طريق مسدود وإلى تأكيد أهميّة العمل الجماعي والانتماء."[١١]

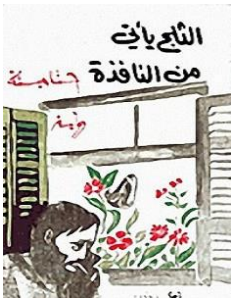

٦- الثلج يأتي من النافذة :

هي أول رواية يغادر فيها البيئة السورية وبالأخص بيئة مدينته الأصلية: اللاذقية. فهو ينتقل نحو بيئة جديدة ، حيث تجري معظم أحداث الرواية. وكانتهذه الرواية تعبر عن شخصيتة, فقد كان مناضلاً شيوعياً وملاحقاً من قبل السلطات. وقد لجأ إلى لبنان , انطلاقاً من ذلك يمكن أن نستعير عبارة تشيخوف عن مكسيم غوركي ونطبقها على حنا مينة: «هذا ليس مكتوباً فقط وإنما معاشاً أيضاً». وبالتالي فحنا مينة ينتمي حتماً إلى التيار الواقعي في الأدب الروائي.

---

[١١]: أسوان عدنان طه, مدرسة راهبات الفرانسيسكان , الناصرة .

وكان لواقعيته السبب المباشر في نجاح كتاباته في حين فشل الآخرون.. فقد استطاع بفضل موهبته الفنية الكبيرة تحاشي السقوط في الكثير من أفكار الشيوعيين التي لاتناسب في الكثير من الأحيان طريقة تفكيرنا ومعتقداتنا و عيشنا نحن العرب , لقد تحاشى من تحويل رواياته إلى أفكار قد تكون غريبة على مجتمعاتنا . ولولا ذلك لما تبقى منه شيء. بمعنى آخر، لقد انتصر على أيديولوجيته السياسية كفنان وروائي من أعلى طراز.

وسأذكر بعضا من أسماء رواياته :

حكاية بحار – الشراع والعاصفة – حدث في بيتاحو –الشمس في يوم غائم تحول لفيلم بنفس الاسم – الولاعة – حمامة زرقاء في السحب – حارة الشحاذين – البحر والسفينة وهي – الرجل الذي يكره نفسه – الفم الكرزي – الذئب الأسود – بقايا صور تحولت إلى فيلم – المستنقع– القطاف – الربيع والخريف – فوق الجبل وتحت الثلج – النجوم تحاكي القمر – القمر في المحاق – عروس الموجة السوداء – الأرقش والغجرية – حين مات الهند – صراع امرأتين – المرصد –٠ الدقل – المرفأ البعيد – امرأة تجهل أنها امرأة – مأساة ديمترو – الرحيل عند الغروب – المرأة ذات الثوب الأسود – المغامرة الأخيرة – هواجس في التجربة الروائية – كيف حملت القلم – النار بين أصابع امرأة – عاهرة ونصف مجنون – شرف قاطع طريق. وتنوعت كتاباته بقلم صادق لم يخذله طوال حياته إلى أن حان موعد الرحيل عن عمر نا هز التسعين عاماً بعد أن مل الحياة والظلم المشتشري بها . توفي في يوم ٢١ آب/ أغسطس عام ٢٠١٨، وقد أُذيع نبأ وفاته رغم أنّه أوصى منذ كان في الخامسة والثمانين من عمره بألّا تذيع أية وسيلة إعلامية نبأ موته قائلًا إنه شبع من الحياة.

و"قد عمّرت طويلاً حتى صرت أخشى ألا أموت، بعد أن شبعت من الدنيا، مع يقيني أنه «لكل أجل كتاب».

لقد كنت سعيداً جداً في حياتي، فمنذ أبصرت عيناي النور، وأنا منذورٌ للشقاء، وفي قلب الشقاء حاربت الشقاء، وانتصرت عليه، وهذه نعمة الله، ومكافأة السماء، وإني لمن الشاكرين" [١٢]. وكان متحدث لبق بسيط فلطالما عبر عن ذلك في الكثير من لقائاته الصحفية : "كل ما فعلته في حياتي معروفٌ، وهو أداء واجبي تجاه وطني وشعبي، وقد كرّست كل كلماتي لأجل هدف واحد: نصرة الفقراء والبؤساء والمعذبين في الأرض، وبعد أن ناضلت بجسدي في سبيل هذا الهدف، وبدأت الكتابة في الأربعين من عمري، شرّعت قلمي لأجل الهدف ذاته، ولما أزل. لا عتبٌ ولا عتابٌ، ولست ذاكرهما، هنا، إلا للضرورة، فقد اعتمدت عمري كله، لا على الحظ، بل على الساعد، فيدي وحدها، وبمفردها، صفّقت، وإني لأشكر هذه اليد، ففي الشكر تدوم النِعم [١٣]".

المصادر والمراجع :

١. أسوان عدنان طه, مدرسة راهبات الفرانسيسكان , الناصرة
٢. جريدة الجزيرة : ١٢-٨-٢٠١٨
٣. خاص القصة السورية , أضيفت في ٢٤-٤-٢٠٠٥
٤. عزت فرح , منبر العرب ,٧-٥ -٢٠١٧
٥. ك نور عساف , الجرس , بيروت , ٢٣-٨-٢٠١٨..
٦. مقابله خاصة مع حنا مينا , خاص القصة السورية ,٢٨- ٨- ٢٠٠٣
٧. هاشم صالح , الملحق الثقافي ,حنا مينا وتطويع الأيدلوجيا , ٢٩ أغسطس ٢٠١٨.
٨. "Hanna Mina". Syria Times. 7 July 2013. Retrieved 18 April 2018

[١٢]:ك نور عساف , الجرس , بيروت , ٢٣-٨-٢٠١٨.

[١٣]: ك نور عساف , الجرس , ١٢-٨ -٢٠١٨.

"Hanna Mina: Syria's Old Man of the Sea". Al Akhbar. 24 March 2012. Retrieved 17 April 2018 .٩